سورة العصر

مكية وهي أربع آيات مع البسملة وهي ركوع واحد

هي مكية عند معظم المفسرين (فتح البيان). وهي من أوائل السور المكية عند المستشرقين، وقد اعتبرها "وليام موير" مما يسميه الخواطر النفسية للرسول ﷺ، أي من السور التي يعتبرها مناجاة الرسول ﷺ مع نفسه. ولأنه يعتبر مثل هذه السور من أوائل ما نزل في مكة فهذه السورة عنده من أوائل السور المكية. (تفسير القرآن لـــ"ويري").

قد وردت عن هذه السورة قصة عجيبة في الروايات التي هي غير معروفة عادة، فقد روي عن عمرو بن العاص أنه ذهب قبل إسلامه مرة إلى مسيلمة الكذاب لبعض شأنه، فسأله "ماذا أُنزل على صاحبكم في هذه المدة؟ فقال عمرو: لقد أُنزلت عليه سورةٌ وجيزة بليغة"، ثم قرأ عليه سورة العصر. ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال: وقد أُنزل عليّ مثلها، ثم قرأ عليه عبارة تافهة مسجّعة، وقال له: كيف ترى يا عمرو؟ فقال: "والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب." (ابن كثير)

هذا يعني أن الكافرين كانوا متأثرين من هذه السورة الموجزة.

وقال الإمام الشافعي: إن هذه السورة شملت جميع علوم القرآن، ولو تدبر الناس هذه السورةَ لوسعتْهم. (ابن كثير، وروح المعاني)

وورد في الحديث: كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، ثم يسلِّم أحدهما على الآخر. (روح المعاني). وهذا يعني أن الصحابة كانوا مدركين سعة مفاهيم هذه السورة.

الترتيب والترابط:

لقد بينتُ من قبل أنه بدءاً من بضع سور سابقة تتحدث سورةٌ منها عن الزمن الأول للإسلام وسورةٌ أخرى عن الزمن الأخير للإسلام. لقد تحدثت سورة التكاثر

عن الزمن الأول له، وهذه السورة (العصر) تتحدث عن الزمن الأخير له. لقد بين الله فيها أن الرقي المادي لا ينقذ أي أمة من الدمار. يأتي على الأمم زمان يظنون فيه أن لا زوال لهم الآن، ولما كان من المقدر أن يأتي على الإسلام زمان يدّعي فيه أعداؤه بسبب ما حقّقوه من تقدُّمٍ مادي أن لا سبيل لهلاكهم الآن، ويقول المسلمون برؤية رقي أعدائهم ألا سبيل لرقي الإسلام الآن، فلذلك قد رسم الله تعالى في سورة العصر حالة الزمن الأخير، بتعبير آخر إنها تتنبأ عن عصر المسيح الموعود عليه السلام. وبالفعل قد طبّق عليه السلام هذه السورة على عصره. (الخطبة الالهامية، ص ٦٤ طبعة بريطانيا)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَالْعَصْرِ ﴿٢﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

العصر: عصَر العنبَ ونحوه عصرًا: استخرجَ ماءه. وعصَر الشيءَ عنه: منَعه. وعصَر فلانًا: أعطاه العطيّةَ. وعصَره حبَسه. والعصر مصدر؛ ومِن معانيه: اليومُ؛ الليلةُ؛ العشيُّ إلى احمرار الشمس؛ الغداةُ -فهذه الكلمة من الأضداد- وجمعُها أعْصُر وعُصور. ومن معاني العصر: الرهطُ والعشيرةُ؛ المطرُ من المعصِرات؛ العطيّةُ. والعَصْر والعِصر والعُصر: الدهرُ. وجمعُها عُصور وأعْصُر وعُصُر وأَعْصار وأَعاصِر. (الأقرب)

والواو في قوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ﴾ للقَسم، والمراد: نقدّم العصرَ شهادةً على أن الإنسان لفي خسر.

الخُسر: خسِر التاجر في بيعه خَسْرا وخَسَرًا وخُسْرًا وخُسُرًا وخُسْرانا وخسارًا وخَسارة: وُضِعَ في تجارته وضِدُّ رِبح. وخسِر الرجلُ: ضلَّ؛ هلَك. (الأقرب)

التفسير: نظرًا إلى معاني العصر المختلفة فإن هذه الآية تنطوي على مفاهيم مختلفة. اعلم أن القرآن ذو بطون ووجوه، فإن كل آية منه تحوي مفاهيم عِدّة، ولا بد من أخذ كل المفاهيم التي يمكن أن تفيدها كلمة ما لغةً أو عُرْفًا والتي يمكن تطبيقها على آية ما. فمن معاني العصر: العشيُّ إلى احمرار الشمس؛ والغداةُ، ولو أخذنا بهذين المعنيين فلا نعتبر الحديث هنا عن عشي وغداة النهار المعروف المتعلق بالشمس المادية، بل يراد به عشيُّ وغداةُ نهارِ رسالةِ النبي ﷺ، لأن القرآن الكريم قد اعتبر الرسول ﷺ شمسا بكل صراحة كما ذكرنا في سورة الشمس. وحيث إن النبي ﷺ شمس، فلا بد أن يُعتبر عهدُه نهارًا، وعليه، فأحد معاني قوله تعالى ﴿والعصر﴾: أننا نقدّم الغداةَ أي الجزء الأول من عهد النبوة المحمدية شهادةً على أن الإنسان لفي خسر. والمراد من الإنسان هنا مَن يقف معارضًا للنبي ﷺ، ذلك أن الكلمات تُفسَّر نظرًا إلى سياقها دائمًا، فما دام الرسول ﷺ شمسًا، فلا بد أن يكون الإنسان الخاسر هنا مَن يعارض الشمس المحمدية ولا ينتفع منها، خاصة وإن الله تعالى قد استثنى بعد ذلك المؤمنين بقوله ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾. فثبت أن الإنسان المذكور هنا هو مَن ليس مؤمنا ويعارض الشمس المحمدية.

والسؤال هنا: لماذا قيل للكفار هنا الإنسان؟

والجواب أن من سنة الله المستمرة أنه كلما بعث نبيًا كان أوائل المؤمنين به من بسطاء الناس عادةً، ومهما بلغ هؤلاء المؤمنون الأوائل من العلم والتقوى وفهمِ أحكام الدين وإصابة الرأي في الأمور الدينية والقرب والروحانية، إلا أن الناس يعتبرونهم من الطبقة الدنيا ماديا، إذ لا يملكون مالاً ولا ثراء ولا حُكما ولا قوة، بينما يملك أعداؤهم كلّ هذه الماديات؛ من مال وجاه وحكم وملك، ولذلك لا يعتبرون المؤمنين في عداد البشر. وهذه المحاورة تُستخدم بلغتنا -الأردية- أيضا، فإذا أراد المرء احتقار أحد قال: هو ليس من عداد البشر. فقوله تعالى ﴿الإنسان﴾ هنا إشارة إلى هذه العقلية الكافرة، إذ يعتبرون أنفسهم أناسًا، أما المسلمون فيزدرونهم حتى لا يعدّونهم من عداد الناس. إذن، فالحق أن قوله تعالى ﴿الإنسان﴾ جاء هنا

تعييرًا للكافرين الذين يزدرون أتباع الأنبياء. وكأنه ﷻ يقول: نقدّم العصر شهادةً على أن هذا الإنسان -الذي يعتبر نفسه وحده إنسانا- مندفعٌ نحو الهلاك. فمهما ازدرى هؤلاء المؤمنين بمحمد ﷺ، ومهما قالوا أنهم ليسوا من عداد البشر، إلا أن الواقع أنهم يسارعون إلى الدمار. إذن، فالقرآن الكريم قد عيّرهم بنفس الكلمة التي يتباهون بها على المؤمنين. ويماثله قول الله تعالى في القرآن لمن يُلقى في النار ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (الدخان:٥٠). فيقول الله له: ذُقْ هذا العذاب لأنك أنت صاحبُ العز والجاه، مع أنه لا مجال لعزه ومكانته عند إلقائه في الجحيم، إذ لو كان صاحب عزٍّ حقًا لما أُدخلَ النار، ولو كان صاحب مكانة لما لقي الذل في الآخرة. إن دخوله النارَ دليل على أن لا عز له ولا مكانة. فقوله تعالى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ تعيير له في الواقع.. أي لقد كنتَ تعتبر نفسك عزيزا كريما في الدنيا، فادخُل اليوم النارَ لتعرف حقيقة ادعائك هذا.

وبالمثل إن قوله تعالى ﴿الإنسان﴾ إشارةٌ إلى ما كان يدعيه أعداء الإسلام بأنهم هم الناس، أما المسلمون فليسوا بأناس. فكأن الله تعالى يقول لهذا الإنسان المتباهي (أي للكافرين): ستعرف أيها الإنسان أنك مندفع إلى الخسارة، وسيظهر بطلان دعاويك كلها، وسوف تلقى من الذل والخزي على أيدي أولئك القوم الذين لا تعتبرهم من الناس ما سيجعلك عبرة لمن يعتبر.

والسؤال الآن: لماذا كان عدو الإسلام هذا يقول إنه هو الإنسان، وغيره ليس بإنسان؟ ذلك لأنه وقومه كانوا يملكون الأسباب التي ينتصر بها الإنسان على الآخرين حتما، بينما كان المسلمون يفتقرون إلى الأشياء التي يؤدي فقدانها إلى الهزيمة دائمًا. كانوا يسمّون أنفسهم "الإنسان" لأن الحُكم بيدهم والمسلمون محكومون، ولا شكّ أن الحاكم هو الذي ينتصر عادة وليس المحكوم. لا شك أن الحاكم يُمنى بالهزيمة أحيانا، ولكن لا يكون ذلك إلا إذا كان رعاياه ضده، أما إذا كانت الرعية معه فلن يلقى الهزيمة من المحكومين.

وكذلك كانوا يعنون من عدم اعتبارهم المسلمين أناسًا أنهم أكثرية والمسلمون أقلية؛ وكأنهم كانوا يقولون ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾(الشعراء:٥٥)، فكيف

ينتصرون علينا؟ الواقع أن النصر يحالف الأكثريةَ عادة لا الأقلية، ثم إن التحزّب يضمن الغلبة للشعوب، وكان أهل مكة يتمتعون بهذه الميزة أيضا، وكان محمد رسول الله ﷺ يفتقر إليها. ثم من عوامل غلبة الأمم الأموال، وكان الأعداء يملكون الأموال، أما محمد ﷺ فلم يملك مالا. وتنتصر الأمم نتيجة سياساتها وعلاقتها الطيبة مع الأمم المجاورة، وكان أعداء الإسلام هم الغالبين على المستوى السياسي. ومن دواعي غلبة الشعوب الصنعة والحرفة، وكان الكفار يتمتعون بهذه الميزة، وكان محمد ﷺ يفتقر إلى ذلك أيضا. إذن، فكل العوامل التي تلعب دورًا في انتصار الأمم وغلبتها كانت في أيدي أعداء النبي ﷺ، وكل الأمور التي تؤدي إلى الهزيمة كانت عند الرسول ﷺ وصحابته، ولذلك يقول الله تعالى هنا: يا مَن تدّعي أنك أنت الإنسان، نحن نسلّم أنك تستحق أن تسمى إنسانا، بمعنى أنك تملك كل ما يجعل الإنسان إنسانًا ويجعل الأممَ غالبة في الدنيا ظاهرًا، إذ تملك الحُكمَ والمال والسياسة والصنعة والحرفة والتجارة، بينما يفتقر محمد وأصحابه إلى هذه الوسائل، وبالتالي هم ليسوا في عِداد البشر من الناحية المادية، ومع ذلك نخبرك أيها "الإنسان" المتسلح بكل أنواع الأسلحة أنك ستكون في خسر، ولن ينفعك ما تملكه من عدة وعتاد في هذا العصر المحمدي. لا شك أن القانون الجاري في الدنيا هو أن من ملَك السياسة والجماهير والعلم والحكم والثراء والصنعة والحرفة انتصر حتما، لكن لن يحدث هكذا في هذه المرة، إذ جاء زمن النبوة المحمدية، وسوف يسنّ الآن قانون آخر بدلاً من هذا القانون، الآن سيُهزم أهل المال رغم أموالهم، وأهل السياسة رغم سياستهم، وأهل العلم رغم علمهم، وأهل الحكم رغم حكمهم، وأهل الصنعة والحرفة رغم صنعتهم وحرفتهم، لتكون هزيمتهم دليلا على صدق محمد (ﷺ) في دعواه. لو انهزم أحدٌ لقلّةِ نفره أو علمه أو لافتقارِه إلى السلطة والحكم أو لضعف سياسته، فأي هزيمة هذه! أما إذا انهزم القوم وخسروا رغم امتلاكهم كل هذه المزايا، فهذا هو الخسران الحقيقي. هذا هو الزوال والدمار الذي حذر الله تعالى منه أهلَ مكة هنا قائلا: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.. أي نقدم هذا العصرَ

شهادةً أنه مهما امتلك هذا الإنسان من قوة وعتاد مادي إلا أنه سوف يكون في خسر حتمًا لبُعده عن الله تعالى.

والسؤال هنا: عَلامَ هذه الشهادة؟

والجواب: إن القاعدة العامة في الدنيا هي أن الأمم تزدهر بالأسباب المادية، لذا يقول الناس: ينبغي أن نثقّف أنفسنا لأن الدنيا تتقدم بالتعليم، أو علينا أن ندخل مجال السياسة لأن الدنيا تتغلب بالسياسة. إن التدابير المادية هي مدار الرقي عند الناس، فيقولون إن السبيل الوحيد لتقدُّمنا أن نجمع الوسائل المادية من علم ومال وقوة وأعوان وصناعة وحرفة، فإذا وفّرناها فتقدُّمنا مضمون ورقينا مؤكد. وإذا قيل لأصحاب هذه الفكرة أنكم إذا عملتم بأحكام الله تعالى أحرزتم التقدم، وإلا سقطتم في الحضيض، ضحكوا ساخرين وقالوا: كيف تقولون ذلك؟! فإن ما نراه في الدنيا هو أنّ من اتخذ التدابير المادية كما ينبغي حقّق هدفَه حتمًا رغم رَفْضِه أحكامَ الشريعة الإلهية، فدَعْوتُكم إيانا للإيمان بالله تعالى وزعمكم أن الانحراف عن أحكامه يدفعنا إلى الحضيض أمرٌ مخالف للعقل تماما. إننا لا نرى أي أثر لحكومة الله على الأرض حيث يزدهر الناس باتخاذ التدابير المادية رغم إنكارهم لوجود الله تعالى وتمردهم عليه، فما دامت كل الأمور تتم هكذا، فكيف نصدق قولكم؟ وكيف نعلم أن حُكم الله وسلطانه يعمل عمله في أمور الدنيا؟ فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، وإلا فقد ثبت بوضوح أن الترقيات المادية لا دخل لله فيها، وإنما مدارها على التدابير المادية فقط، فكلُّ مَن اتخذها على أحسن وجه نجح، ومن لم يتخذها فشل.

يجيب الله على هذا السؤال ويقول إن غلبة البعض في العالم باتخاذ التدابير المادية لا يعني أن الله تعالى لا يحكم هذه الدنيا، والدليل الواضح على ذلك أن الله تعالى عندما يبعث نبيًا فإنه ينتصر على الجميع وينال الغلبة رغم كونه وحيدًا، ويرجع خصومه خاسرين خائبين رغم امتلاكهم كل وسائل الرقي والغلبة، وعندها تدرك الدنيا أن هناك إلهًا، وإلا فكيف انتصر الشخص الوحيد عديم الحيلة على الجميع رغم امتلاكهم جميع الأسباب المادية؟ لقد بين الله تعالى بقوله ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ

الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ - بمعنى أن الإنسان لا يمكن أن ينتصر مقابل الله تعالى - أن هذه القاعدة لا تُشاهَد في كل عصر، إنما تُشاهد في عصر النبوة، إذ يتجلى الله تعالى عندها بقوته وقدرته وجلاله، ولو انتصر أعداء الله تعالى حينها لَحُقَّ للناس أن يقولوا: ما دام أعداء الله قد غلبوا في عصر نبيّ فما الدليل على ألوهية الله وحُكمه؟ ولكن فشل الدنيا أمام النبي رغم امتلاك كل الأسباب والوسائل يشكّل دليلا على أن الله تعالى هو من يحكم هذا العالم. فإذا كان الله تعالى لا يتجلّى بحُكمه وسلطانه في بعض العصور فهذا لا ينفي حُكمه في العالم نهائيا، بل غاية ما يمكن قوله هو أن هناك عصورًا لا يريد الله أن يجلّي فيها حُكمه، وليس أنه تعالى لا يحكم هذا العالم مطلقا، لأنه عندما يتجلى بحكمه في عصر نبي، ترجع كل الدنيا خاسرة خائبة رغم امتلاكها أسباب الغلبة والانتصار.

باختصار، إن أمر حكم الله تعالى وجلاله وعظمته يُحسَم في عصر النبي، فإذا حقق الناس التقدّمَ في غير عصر النبيّ بدون الإيمان، فلا يصحّ القول قياسًا على ذلك أن الله لا يحكم هذا العالم. هذا الاستدلال باطل، إذ لولا حُكم الله تعالى على الكون لما انتصر في عصر النبوة شخص وحيد ضعيف وعديم الحيلة على خصومه الذين يملكون كل الأسباب. يجب أن يكون لانتصار النبي سبب طبيعي مادي، ولكنا لا نجد أي مبرر مادي أو طبيعي له من ناحية، ومن ناحية أخرى نرى أنه يدّعي أنه مبعوث من عند الله تعالى وأنه تعالى سيكتُب له الغلبة على المعارضين، ثم يحالفه النجاح فعلا، مما يدل على أن حُكم الله تعالى لا يزال جاريًا على الكون.

ونجد في حياتنا أيضًا مثالاً لهذا، فإن الأولاد يثيرون الضجة في البيت دائمًا ولا يبالي بها الآباء على العموم، ولكن في وقت آخر حين يثير أحدهم ضجة يلطمه أبوه فيسكت الجميع فورا، وعندها يُعرف أن الأب يحكم البيت فعلاً. وكم من مرة لا يحفظ الطالب دروسه ومع ذلك لا يعاقبه المعلّم، ولكن يأتي يوم يسأله المعلم عما حفظه مِن درسٍ فلا يستطيع الإجابة فيعاقبه، فيعرف الجميع أن حكم المعلّم قائم. فعدمُ معاقبة الوالدين أولادَهما على صراخهم وعدمُ معاقبةِ المعلّم الطالبَ لعدم حفظه الدروس ليس دليلا أن حُكم الوالدين أو حُكم المعلم ليس قائما؛ لأن

الوالدين أو الأستاذ عندما يعاقِب يعرف الجميع أن حكمه قائم، كل ما في الأمر أنهم لم يمارسوا هذه السلطة في الحالات العادية. كما نشاهد الناس يثيرون ضجة ضد حكوماتهم مرارا، ولكنها لا تتخذ أي إجراء ضدهم، ثم يأتي يوم يثير البعض ضجة بسيطة ضدها فتعتقله فورا. فإذا كانت الحكومة لا تعتقل مثيري الشغب أحيانا، فهذا لا يعني أنه لا سلطة لها، لأنها تعتقلهم في وقت آخر، مما يدل على أن سلطتها قائمة.

هذا هو الدليل الذي يذكره الله تعالى هنا، فيقول إننا نقدّم عصر النبوة المحمدية دليلاً على أن الإنسان لن يحرز التقدم والرقي معرضًا عن الله تعالى، وإذا حققه فليس معنى ذلك إلا أن الله تعالى منحه بعض المهلة، إذ الحقيقة أن الإنسان إذا أعرض عن الله تعالى كان في خسر دائم، والدليل على ذلك أن الله تعالى حين يريد أن يعيش الناس منقادين لأحكامه يبعث إليهم نبيًّا من عنده، فلا يستطيعون أن يتغلبوا عليه مهما امتلكوا من الأسباب والوسائل والتدابير.

والمعنى الثاني للعصر "العشي إلى احمرار الشمس"، أي الجزء الآخر من النهار، بتعبير آخر الجزء الأخير من نهار الشمس المحمدية، وعليه فإنّ مفهوم قوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أنه عندما يأتي زمن الانحطاط على الإسلام في الزمن الأخير ويبعث الله تعالى محمدًا رسول الله ﷺ لإحياء دينه ثانية لن يمتلك المؤمنون بمحمد أيةَ أسباب مادية، وستقول الدنيا إن جماعة محمد ضعيفة عديمة الحيلة جدا وأن أعداءها يملكون القوة والقدرة والأسباب والعتاد كلها، فكيف تنتصر جماعته وينهزم أعداؤها؟ ولكننا نعلن أنه رغم هذا الواقع نعلن: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.. أي ستكون النتيجة النهائية أن الأعداء –الذين يتباهون مغرورين بقوتهم بأنهم هم الناس وأن جماعة محمد لشرذمةٌ قليلون– هم الذين سيَلقَون الهزيمة، وتنتصر بتأييد الله جماعته التي لا تُعَدّ في عداد البشر ولا يؤبه لها. لقد جرّبَت الدنيا صدق هذه القاعدة في الماضي عند البعثة الأولى لمحمد ﷺ، ورأتْ كيف انهزم القوم الذين كانوا يحتقرونه وأتباعه وانتصر هو وجماعته رغم قلة أسبابهم ووسائلهم. ثم إن عصر فتوحات المسلمين ونهضتهم لم ينحصر في سنوات قلائل، بل امتد لقرون.

لم يكن للمسلمين في بداية عصرهم شأن يُذكر في المخترعات والاكتشافات، كما لم يكونوا مميزين عن غيرهم في العلم والتجارة والثروة والمال، بل كانوا في كل هذه المجالات كغيرهم من الأمم، ومع ذلك قد أناط الله تعالى كل أنواع الرقيّ بالإسلام دون أوروبا ودون الصين ودون اليابان. فكل مَن التحق بالمسلمين نُفخ فيه روح الرقيّ والتقدّم. كانت العلوم موجودة والأمم المجتهدة موجودة والمستثمرون موجودين، إلا أنه لم يأخذ الناسَ إلى الرقيّ لقرون إلا الإسلام. لماذا فشلت التدابير الإنسانية عندها يا ترى؟ إنما سببه أن ذلك العصر كان عصرَ ظهورِ النبوة الذي أراد الله أن يسنّ فيه قانونا جديدا حيث لا تنفع التدابير المادية، بل يناط العمل الناجح بالإيمان. عندها قرّر الله تعالى أن لا تزدهر الدنيا الآن إلا باتباع محمد ﷺ، وأن ينتصر من يدخل في طاعته ﷺ، أما الذي لا ينضم إلى أتباعه فسينهزم. وهذا ما حصل بالفعل. فكل أمة ظلتْ بعيدةً عن الإسلام ظلت بعيدة عن الرقي أيضا، وكل أمة ارتبطت بالإسلام تقدمت وازدهرت. ولذلك يخبر الله تعالى هنا أن المشهد الذي شاهدتموه في عصر الإسلام الأول سوف تشاهدونه في عصره الأخير أيضا. وبالفعل نجد اليوم – عند البعثة الثانية للرسول ﷺ في شخص المسيح الموعود عليه السلام في هذا العصر – أممًا تدّعي أنها هي الإنسان، فهي عندما تستخدم اصطلاح (Humanitarian) أي البشرية، فليس له أي مفهوم عندهم إلا أن مِن واجب الأوروبيين ألا يقسوا على الأوروبيين، أو أن من واجب الأمريكان ألا يعاملوا الأمريكان بقسوة، وكذلك عندما ينادي هؤلاء بالحرية والمساواة في العالم، فإنما يعنون به أن أهل الغرب يجب أن يتمتعوا بالحرية والمساواة، أما أهل آسيا فلا يخطرون ببالهم عند ترديدهم هذا الهتاف، إذ لا يعتبرون الآسيويين أناسا. من أجل ذلك يقول الله تعالى هنا إنه سيأتي على الناس ذلك العصر مرة أخرى حين تزعم شريحة من الناس أنهم هم الإنسان، وأما سواهم من الناس فلا يساوون شيئا، وفي ذلك العصر أيضًا سيمتلك أعداء الإسلام كل الأسباب والوسائل، ويقول أهل الدنيا نظرًا إلى قوتهم إن هؤلاء لا يمكن أن يُهزموا، ولا يمكن أن يندرس مجدهم، ويزول رعبهم؛ ولكنا نخبركم أن ذلك العصر يكون عصرَ النبوة أي البعثة الثانية

لمحمد، ولذلك فلا بد أن ينهزم أعداء الإسلام وتُسحَق قوتهم رغم امتلاكهم كل الأسباب في مواجهة محمدٍ ﷺ وجماعتِه المستضعَفة، وسترى الدنيا تلك الآية الربانية ثانية بأن الذين يخرجون لمعارضة أنبياء الله في عصر النبوة يرجعون خائبين خاسرين دومًا.

اليوم أيضًا يقال لنا: كيف تقولون أن تقدُّم الأمة محال من دون الإيمان بالنبي، مع أن الرقيّ منوط بالأسباب المادية لا بالإيمان بالله ورسله، فما دمنا نشاهد أن الأمم التي تتخذ الأسباب المادية هي التي تنتصر دائما، فلماذا تعارضون الأمر الواقع، وتقدّمون نظرية جديدة بأن الناس لا يمكن أن يزدهروا من دون الإيمان بمأمور رباني؟ هذا السؤال يثار اليوم ضد الأحمدية أيضًا من قبل المسلمين الآخرين وغيرهم. يقولون: إنما سبيل الرقي تأسيسُ المدارس والجامعات وإنشاء المصانع والاشتراك في النشاطات السياسية والعمل على ما يزيدنا قوةً وعددًا! أما إهمالُ هذه الأمور ودعوة الناس إلى الإيمان بنبي فليس سبيلا للرقي. إن الإيمان بنبي لن يحقق الرقي لأي قوم، كلا بل إن سبيل الرقي هو في اتّخاذ التدابير المادية وجمع الأسباب اللازمة إلى أقصى حدّ!!

والجواب: لا شك أن الناس يتقدمون بالوسائل المادية عادةً، ولكن ليس الأمر هكذا في زمن النبوة، إنما يزدهرون عندها بالأسباب الروحانية، ذلك لكي يظهر جلال الله تعالى ولتسخَّر الدنيا لخدمة الدين، أما بدون ذلك فلا يمكن أن يظهر على الأرض ملكوت الله الذي دعا المسيح الناصري عليه السلام من أجله بقوله: "لِيَأْتِ مَلَكُوتُكَ، لِتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذلِكَ عَلَى الأَرْضِ"(متى ٦: ١٠). فكيف يظهر لهم ملكوتُ الله إذا كانوا ينتصرون بالأسباب المادية دائما؟ وكيف يعلمون أن هناك إلهًا حيًّا قويًّا لو اجتمعت قوى الدنيا كلها خلاف مشيئته لدمّرها بغضبه تدميرا، إذ لولا ذلك لَحُرِمَ كثير من الناس من الهدى، ولظل أمرُ أفضلية الدين مشتبهًا على معظم الناس. لكن عندما يعلن النبي –الذي يكون عديم الحيلة– أنه سينتصر وأن كل القوى التي تحاربه سوف تهزم رغم امتلاكها الأسباب كلها، ثم يقع كما يقول، فهذا يشكّل دليلاً ساطعًا على أن ملكوت الله لا يزال قائما على الأرض.

يقول الكُتّاب الغربيون اليوم بكل شدة إذا كان محمد قد حالفه النجاح فلا غرابة في ذلك، إذ كانت إمبراطورية قيصر عندها تتهاوى بسبب ضعفها الداخلي، وكانت أمارات الضعف والاختلال قد بدأت في الظهور في إمبراطورية كسرى أيضا، وكان الجميع يدرك أنهما على وشك الانهيار، فأي معجزة لمحمد في انتصاره على هؤلاء القوم؟

لكنا نقول: هل كانت حالة العرب كهاتين الإمبراطوريتين؟ لو كانوا أحسنَ حالاً منهما فيمكن القول أنهم دكّوهما دكًّا بسبب ضعفهما. ولكن كل من عنده إلمامٌ بالتاريخ يدرك أن العرب ما كان لهم شأن يذكر أمام قيصر وكسرى. فما السبب، يا ترى، في تحطُّم هاتين الإمبراطوريتين بيد العرب؟ لا سيما أولئك العرب الذين كان إخوانهم العرب قد هبّوا للقضاء عليهم، بل كان أهل مكة يرون أنهم يستطيعون بمفردهم سحق المسلمين، دعْك عن باقي العرب وعن قيصر وكسرى. فكل من يقدر على التوصل إلى النتائج السليمة بالنظر في الأوضاع يستحيل عليه أن يقول –ولو لحظة واحدة– أنه كان بوسع ذلك الشخص الوحيد– الذي كان أهل مكة يرون أنه غير قادر على مقاومتهم وأنهم سيسحقونه سحقا– أن يدكّ إمبراطورية قيصر وكسرى دكًّا. فبينما كان أهل مكة يعلنون أنهم يقضون على هذا الشخص الضعيف الوحيد، كان يُعلن للدنيا أنه لن ينتصر على أهل مكة وأهل الجزيرة العربية فحسب، بل سيقضي على إمبراطوريتي قيصر وكسرى. وهذا ما حصل بالضبط. لو كانت الظروف ملائمة لانتصار محمد ﷺ –كما يزعم الكتاب الغربيون اليوم– فكيف أعلن أهل مكة أنهم سيقضون عليه ﷺ؟ ولماذا قال أهل الجزيرة العربية أنهم سيسحقونه سحقا؟ إن إعلان أهل مكة بكل قوة على الملأ بأنهم سيسحقون الإسلام سحقًا لدليلٌ ساطع على أنهم كانوا يعرفون أن محمدا لا يملك أية قوة، وأنه غير قادر على مقاومتهم، ناهيك عن مقاومة إمبراطورتي قيصر وكسرى، ومع ذلك نرى أن ذلك الشخص الوحيد الضعيف نال القوة باضطراد حتى لم يقدر قيصر وكسرى على مقاومته.

وهذا هو حال جماعتنا اليوم أيضا. فإننا اليوم أضعفُ الناس قوةً وأقلُّهم أسبابًا، ومن المحال أن يقول أحد بالنظر إلى الأسباب المادية بغلبتنا على العالم كله في يوم من الأيام، ولكن عندما تصبح الأحمدية غالبة على الدنيا كلها بعد قرنين أو ثلاثة، سيخرج عندها مِن بين الناس أمثالُ هؤلاء الكُتّاب الغربيين، فيقولون أيضًا: ما الغرابة في غلبة الأحمدية؟ إن غلبتها كانت مؤكدة جليّة للعيان، لأن الظروف كانت تتهيّأ لذلك، إذ كانت آثار زوال أوروبا وآسيا قد بدأت في الظهور، وأصبحت الحكومات المادية منخورة من داخلها، وإذا كان مؤسس الأحمدية قد أخبر بأنها سوف تصبح غالبة على العالم، فليس في ذلك أي نبوءة ولا معجزة. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا: هل يوجد في الدنيا اليوم مَن يتفق مع هذه الدعوى: بأن الأحمدية ستنتصر وتصبح غالبة على العالم كله؟ فإذا كان هذا محالاً اليوم فيكون أيضًا باطلاً قولُهم عند غلبة الأحمدية بعد قرنين أو ثلاثة قرون بأن هذه الغلبة كانت متوقعة بحسب الظروف. إن مثل هذه الأقوال علامة الكاذبين الذين يختلقون ألف عذر لإخفاء الآيات الربانية عند مرور الوقت. إنهم يسعون لأن يقلّلوا من شأن النبوءات الإلهية بقولهم: إن هذه كانت نتيجة حتمية للظروف السائدة.

لا شك أنه قد انقضى العصر الذي كان الرسول ﷺ موجودًا فيه بشخصه، ولكنا نعيش اليوم في عصر المسيح الموعود عليه السلام الذي أعلن أمام العالم بناءً على وحي الله تعالى، فقال:

"اسمعوا جيدًا أيها الناس جميعًا، إنه لما أنبأ به خالقُ السماوات والأرض أنه سوف ينشر جماعتَه هذه في أنحاء العالم كلها، ويجعلهم غالبين على الجميع بالحجة والبرهان، وأن الأيام لآتية، بل إنها لقريبةٌ حين لا يُذكر في الدنيا بالعز والشرف إلا هذا المذهب. إن الله سوف يبارك هذا المذهب وهذه الجماعة بركاتٍ كبرى خارقةً للعادة، ويخيّب كلَّ مَن يفكّر في القضاء عليها، وسوف تستمر هذه الغلبة إلى يوم القيامة". (تذكرة الشهادتين، الخزائن الروحانية مجلد ٢٠، ص ٦٦)

كان المولوي ثناء الله الأمرتسري يعترض على هذه النبوءة كثيرًا قائلا: لقد مضى على هذه النبوءة زمن طويل، ولكن الأحمدية لم تحرز هذه الغلبة بعد. ولكن

حين يكتب الله الغلبة الكاملة للأحمدية بعد مدة من الزمن فعلاً، سيقول أتباع الأمرتسري: أيُّ غرابة في غلبة الأحمدية؟ كانت الظروف مهيأة لغلبتها، إذ كانت آثار الانحطاط في أوروبا وعند الهندوس وعند المسلمين الآخرين تلوح في الأفق، فكانت الظروف تحتّم غلبة الأحمدية وانتصارها.

فالحق أن مِن دَأْبِ المعارضين أنهم في أول الأمر يعتبرون غلبةَ جماعات الأنبياء ضربًا من المحال، ثم عندما تصبح جماعاتهم غالبة يقولون: ما الغرابة في ذلك؟ كانت الظروف تحتّم ذلك.

على أية حال، إن الغلبة في الدنيا منوطة بالأسباب المادية عادةً، ولكن في زمن بعثة نبي يجعلها الله تعالى منوطة بالنبوة أي بالإيمان به، للتدليل على أن حُكم الله تعالى لا يزال قائمًا في الأرض، وإلا فالواقع أن الأنبياء لا علاقة لهم بالحُكم المادي، إنهم يُبعثون إلى الدنيا لإظهار ألوهية الله وقدرته، فتتجلى ألوهيته في عصرهم أيَّما تجلٍّ فينهضون بأمتهم من الحضيض ويجعلونهم غالبين على الدنيا رغم افتقارهم إلى الأسباب المادية، فيدرك الناس أن رقيهم المادي لم يتمّ بجهودهم فحسب، بل بأمر الله أيضا. إن التدابير المادية للرقي تعمل عملها ما لم يتدخل الله في الأمر، لكنه حين يتدخّل تصبح الدنيا عاجزة كليًا، فلا ينفعها أي تدبير.

هذا لا يعني أن التدابير المادية تصبح باطلة عندها، كلا، إنها لا تبطل، وإنما تأتي بنتائجها مرتبطةً بالإيمان لا بدونه، كما بين الله تعالى هذا المعنى في الآية التالية في هذه السورة.

لقد اعتبر النبي ﷺ أيضًا زمنه عصرًا، ولكن ليس بالمعنى الذي ذكرتُه آنفًا بل بمعنى آخر، حيث ورد في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال إن رجلا اسْتَعْمَلَ عُمَّالاً، فعملوا له حتى الظهر، ثم استعمل جماعة أخرى من العمال فعملوا حتى العصر، ثم جماعة ثالثة عملتْ حتى المساء، ثم أعطى الجميعَ الأجرة متساوية، فقال الأولون: لقد عمِلْنا فترة أطول ولكنا أُعطينا كأجرة الذين عملوا من الظهر إلى العصر أو من العصر إلى المغرب، فقال صاحب العمل: ألم أُعْطِكم ما وعدتُكم؟ وما دمتُ لم أظلمكم فلا يحق لكم أن تعترضوا إذا أعطيتُ مثل أجركم مَن عملوا فترةً أقلّ. ثم

قال إن الجماعة الأولى من العُمال هم اليهود، والثانية هم النصارى، والثالثة هم أنتم أيها المسلمون*. فثبت من هنا أن الرسول ﷺ قد اعتبر زمنه عصرًا بمفهوم خاص.

ومن معاني العصر: الرهط والعشيرة، وعليه فالمراد من قوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أننا نقدِّم قومَ محمد ﷺ شهادةً على أن الإنسان مندفع نحو الخسران. وسنعتبر الإنسان في هذه الحالة بمفهومه العام، ويكون المراد من هذه الآية: دَعُوا جانبًا باقي الناس الذين لا تعرفون أحوالهم، وانظروا إلى حالة أهل مكة الذين تعرفون أحوالهم. إنهم مِن نسل النبيَّيْن المقدّسَيْن إبراهيم وإسماعيل، وجيرانُ الكعبة التي عُهِدَ إليهم حفظها، ولكنهم بدلاً من أن يؤدوا واجبهم ويرفعوا اسم الله تعالى، ابتعدوا عن الله تعالى كلية حتى أصبحوا سدنةً للبيت يسعون ليل نهار أن يسجد الناس للاّت والعُزّى ومناة ويقرّبوا لها القرابين، ليقتاتوا من ذلك. لقد كان هؤلاء أحقَّ الناس أن ينشروا اسم الله في العالم، ولكنهم جلسوا مجاورين البيت واتبعوا أهواء النفس، بدلا من أن يرفعوا اسم الله تعالى في العالم، مما يوضح بكل جلاء أن الغواية كانت قد أحاطت بالدنيا كليةً، فكان لا بد من أن يبعث الله نبيًّا لإصلاحها.

ومن معاني العصر: الليل، وعليه فإن الله تعالى قد بين بقوله ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قاعدةً كليّةً بأنه إذا حل بأُمةٍ ليلُ الانحطاط والدمار فليس السبيل لنجاتها إلا الإيمان والعمل الصالح.. أي أنها

---

* نص الحديث كما أخرجه البخاري في صحيحه هو: عن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الْكِتَابَيْنِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ، فَقَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةٍ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتْ الْيَهُودُ. ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتْ النَّصَارَى. ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ الْعَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ. فَغَضِبَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلا وَأَقَلَّ عَطَاءً؟ قَالَ: هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟ قَالُوا: لا. قَالَ: فَذَلِكَ فَضْلِي، أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ. (البخاري، كتاب الإجارة، باب الإجارة إلى نصف النهار)

لا يمكن أن تزدهر إلا بهداية سماوية. ذلك أن زمنَ الليل هو زمنُ الظلمة، فقوله تعالى ﴿والعصر﴾ يعني ذلك الزمن الذي يحل فيه الدمار بقوم، فلا يجدون بارقة أمل. فالله تعالى يقول هنا إننا نقدّم وقت دمار الأمم وانحطاطها شهادةً على أن ﴿الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.. أي في زمن الانحطاط من المحال أن تنجو الجماعة الإلهية من الدمار إلا بطريق واحد، وهو أن يُبعث إليهم نبي من عند الله تعالى لإحيائهم من جديد، فيؤمنوا به وينجوا. هذه قاعدة كلية لا نجد خلافها مثالاً واحدا في التاريخ. فكلما سقطت جماعة إلهية لم تحيَ ثانيةً إلا على يد نبي دائما، أما بدون ذلك فلم يتم إحياء أي أمة حتى اليوم. يخبرنا التاريخ مثلاً أن الأمة الهندوسية ازدهرت ببعثة "كرشنا" عليه السلام بينهم، ثم عاشوا فترة طويلة من الانحطاط لم تنته إلا حين بعث الله إليهم "رام شندر" عليه السلام –أو بحسب عقيدة الهندوس أنهم ازدهروا أولاً ببعثة "رام شندر" بينهم ثم ازدهروا ببعثة كرشنا بينهم حيث بلغوا ذروة الازدهار عن طريقه– ثم أصابهم الانحطاط، فبعث الله لهدايتهم "بوذا" عليه السلام، فآمنوا به وازدهروا مرة ثالثة.

باختصار، كلما ازدهرت جماعة ربانية بعد انحطاطها ازدهرت نتيجة الإيمان والعمل الصالح فقط. لم تزدهر حتى اليوم جماعة ربانية واحدة بالتدابير المادية. هذا قانون إلهي لا تبديل فيه، فلن تجد نظيرا في التاريخ أن جماعة إلهية سقطت بعد الرقي ثم ازدهرت ثانية باتخاذ التدابير المادية فقط. لقد أناط الله رقي الجماعات الدينية بعد الزوال بالنبوة، فالأمة التي ترتبط بالنبي تعرج مرة أخرى، والتي لا ترتبط به لا تنهض من الحضيض أبدًا مهما اتخذت من تدابير. خذوا مثلا بني إسرائيل لقد بعث الله تعالى أولاً إبراهيم عليه السلام فأخذ بهم إلى الذروة، ثم سقطوا فبعث الله فيهم موسى عليه السلام، فنهض بهذا الشعب المنهار إلى ذروة الرقيّ، ثم أصيبوا بالانحطاط، فجاء شمعون عليه السلام فقام بإصلاحهم، ثم أصابهم الانحطاط فجاء داود عليه السلام وأصلح حالهم، وعندما دمرتهم الدولة البابلية أقام الله لهم النبي عزرا عليه السلام الذي عمل على رفع الذل عنهم، ثم سقطوا فبعث الله عيسى عليه السلام، ولم يحدث ولا مرة واحدة أنهم عرجوا ثانيةً من خلال التدابير المادية أو اتباع الزعماء الدينيين من دون الإيمان بنبي.

وهذا هو القانون الإلهي الجاري بالنسبة إلى المسلمين، ولكنهم يظنون لجهلهم أن السبيل إلى نجاحهم وإزالة ذلتهم ونكبتهم هو تأسيس الجمعيات والأحزاب وإنشاء المدارس والكليات والجامعات والعناية بالصنعة والحرفة والتجارة، وعندها يقفون ثانيةً في صفوف الأمم المتقدمة. إنهم لا يرون أنه لا يوجد في تاريخ الأديان مثال واحد أن جماعة ربانية نالت الغلبة بعد انحطاطها بالتدابير المادية فقط. كلا، بل كلما نهضت جماعة إلهية بعد انهيارها إنما نهضت على يد نبي، أما من دون ذلك فلم يسبق له نظير في التاريخ.

ويقول البعض هنا: إذا كان هذا صحيحا، فكيف ازدهرت إنجلترا وأمريكا؟ بأي نبي آمن أهلها حتى أصبحوا غالبين على العالم كله؟

والجواب: من الخطأ القول أن إنجلترا وأمريكا وغيرهما من الشعوب أحرزوا الرقي بعد الانحطاط. كلا، بل إنهم قد تطوروا وبلغوا أوج الرقيّ بعد أن كانوا همجيين، ولا يصحّ القول أنهم سقطوا بعد رقيّ ثم نالوا هذه الغلبة على العالم كله من خلال التدابير المادية. إن ما أركّز عليه هو أنه إذا سقطتْ جماعة إلهية -أعني التي تنتمي إلى دين حقّ- بعد ازدهارها، فلا يمكن أن تنهض ثانيةً إلا إذا بعث الله إليها نبيًّا. أما هذه الأمم فهي لم تسقط أبدًا بعد إحراز الرقيّ. لا شك أنها تطورت من الحالة الأدنى وبلغت أوج الرقيّ، لكنها لم تحرزه بعد الانحطاط.

هناك أمة واحدة فقط حققت الرقي بعد الانحطاط وهي اليابان، لكن مثالها لا ينطبق هنا، لأن الحديث هنا عن رقي الأمة التي لا تزال على صلة بالوحي، أما الأمة التي قد انقطع عنها نور الإلهام فيمكن أن تزدهر بعد انحطاطها ثانيةً باتخاذها الأسباب المادية فقط، ولكن الأمة التي لم ينقطع عنها الوحي والإلهام وكانت مؤمنة بنبي صادق عهدُه مستمر، فإنها لا يمكن أن تحرز الرقي بعد الانحطاط إلا من خلال مبعوث من الله تعالى. وحيث إن كل الأمم -سوى المسلمين- قد انقطعت صلتها بدين حق، فلذلك يمكن أن يزدهر الهندوس متخذين التدابير المادية الخالصة، لأنهم ليسوا أتباع دين حقّ اليوم. لا شك أنهم كانوا يُعتبرون أتباعَ دين حقّ حين كانت الهندوسية دينًا حيًّا، وقد أحرزوا عندها الرقيّ بالإيمان بكرشنا أولاً، ثم ازدهروا

بالإيمان برام شندر، ثم ازدهروا بالإيمان ببوذا – أو ازدهروا أولاً من خلال رام شندر ثم على يد كرشنا ثم عن طريق بوذا كما يقول الهندوس– أما بعد بوذا فأصبحت الهندوسية ثم البوذية منسوختين، فلو ازدهر الهندوس الآن بالتدابير المادية وحدها فلا اعتراض على ذلك. وبالمثل إنْ تقدّمَ المسيحيون بعد انحطاطهم بالتدابير المادية فقط، فلا حرج في ذلك أيضا، لأن الله تعالى قد قطع صلة محبته عنهم كلية، وأصبحت ديانتهم منسوخة. أما المسلمون فمن المحال أن يحرزوا الرقيّ بالتدابير المادية وحدها أبدا، لأنهم أتباعُ دين حقّ، وهم مثالٌ للجماعة الربانية التي إذا أصابها الانحطاط فلا يمكن أن تزدهر ثانية إلا إذا بعث الله لها نبيًّا.

فلا يغيبنّ عن البال أبدًا أن قانون الرقي هذا ليس عامًّا، بل هو خاصٌّ بالأمة التي لم يحرمها الله من الوحي. فإنه تعالى قد ربط رقيهم المادي بدينهم، لأنهم لو أحرزوا الرقي المادي من دون العمل بدينهم، لاندثر الدين في العالم، ولم يعُدْ لله أي مكانة في حياة الناس. لذا فمن المستحيل أن يكتب الله تعالى الرقي للمسلمين ما لم يصبحوا من الذين قال الله فيهم ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. لقد تخلّى الله تعالى اليوم عن أتباع الديانات كلها سواء الزرادشتية والكونفوشيوسية والبوذية والهندوسية والمسيحية وغيرها. مثالهم كمثال ثورٍ هرِمٍ يسرّحه صاحبه من البيت، فلا يبالي إذا رجع إلى البيت أم لا. أما مثال المسلمين فهو مثال بقرة حلوب، فإذا لم ترجع إلى البيت خرج صاحبها في طلبها. فكما أن للثور الهرم والبقرة الحلوب قانونين مختلفين، كذلك للإسلام والأديان الأخرى قانونان ربانيان مختلفان؛ فإذا ازدهرت الطوائف الدينية – المنقطعةُ صلتُها مع الله – بالأسباب المادية لم يكترث الله لذلك، أما الجماعات الربانية التي لا تزال على صلتها الروحانية بالله تعالى، فإن القانون الرباني الخاص بها هو أن إصلاحها ورقيها لا يتم إلا من خلال نبيّ. فالحق أن مثال إنجلترا وأمريكا واليابان وغيرها لا ينطبق هنا، لأن هذا القانون خاص بالأمة التي لا تزال على صلة مع الله تعالى، وليس بالأمم المحرومة من نور الوحي كليّةً جراء عصيانها لله تعالى.

ومن معاني العصر: النهارُ، وعليه فمفهوم هذه الآية أننا نقدّم النهارَ شهادةً على أن الإنسان في خسر، بمعنى: إذا طلعت شمس الرسالة، فإن الأمة التي تكون مقابلها، لا يمكن أن تنجو من الدمار إلا بالإيمان بها.

ومن معاني العصر: العطية، وعليه فالمعنى أننا نقدّم العطيةَ شهادةً على أن الإنسان في خسر، بمعنى أن الله تعالى عندما يُنعم على الدنيا بعطية النبوة والوحي، فلا يزدهر إلا المؤمنون، أما الآخرون فيظلون محرومين من الرقيّ.

لقد ذكرنا عند شرح الكلمات أن الخسر يعني: ضِدّ الربح والضلال والهلاك. ونظرًا إلى معنى الهلاك، لو طبّقنا هذه الآية على الزمن الأخير للإسلام فالإنسان هنا إنسان الغرب، وعليه ستكون هذه الآية نبوءة بأن الإنسان الغربي سيعتبر نفسه هو إنسانًا فقط، أما باقي البشر فلن يعتبرهم أناسًا، والمراد من قوله تعالى ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ أن إنسان الغرب كلّما سعى لإحراز الكمال في زعمه دفع نفسه إلى هوة الهلاك. وبالفعل قد انكشفت هذه الحقيقة الآن على العالم كله، فكلما تقدمت حضارتهم زادت من أسباب الدمار والهلاك، ومثالها القنبلة الذرية التي اخترعوها في الحرب العالمية الأخيرة (الثانية). إنه سلاح فتّاك ومدمر للغاية، حتى أعلن الجنرال مكارثر Douglas MacArthur صراحة: علينا أن نحسّن أخلاقنا بشكل ملحوظ في استعمال هذه الأسلحة، وإلا فلا شكّ في دمار العالم. وهذا ما أنبأ الله به هنا بأن الغرب كلما زعم أنه الإنسان.. أي كلما ادعى أهل الغرب أنهم كبار العلماء والرياضيين والتجار والصناع والمخترعين والمكتشفين اقتربوا إلى الهلاك، وحفروا قبورهم بأيديهم.

ومن معاني الخسر: الضلالُ، فقوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ يعني أن الناس في الزمن الأخير سيعتبرون أنفسهم وحدهم أناسا ويحتقرون المؤمنين ويزدروهم، بينما لا يكون الهدى إلا عند المؤمنين. إن ذلك العصر الكامل -أي الذي يُبعَث فيه موعود رباني- سيشكّل دليلاً على ضلال إنسان الغرب الذي يبدو كاملا في الظاهر. بمعنى أنه لن يكون عندها سبيل لكشف خطأ إنسان الغرب وضلاله أمام العالم إلا السبيل الروحاني، أي شخصيةُ نبي موعود. إذن فالعصر في

هذه الحالة يعني العصر الكامل، ولا شك أن العصر الكامل إنما هو الذي يبعث الله فيه نبيًا لهداية الناس. وعليه، فمفهوم الآية أنه سيوجد في الزمن الأخير شعب يعلن أنه هو "الإنسان" أما الآخرون فليسوا في عِداد البشر، بينما الواقع أن هذا "الإنسان" يكون في ضلال، ولكن الناس لم يستطيعوا كشف ضلاله، إذ لا سبيل لذلك إلا السبيل الروحاني. وبالفعل نرى أن كشف ضلال الغرب لم يعُدْ صعبًا بعد بعثة المسيح الموعود عليه السلام، فبوسع كل واحد منا أن يعلن على الملأ أن أهل الغرب في ضلال، ذلك لأن الله تعالى قد بعث نبيًا فآمنّا به، ولكن الغرب يرفضه، لذلك نحن على الهدى والغرب على الضلال. أما الأديان والفِرق الإسلامية الأخرى فكيف يمكنها أن تثبت فضلها على الغرب وتقول نحن على الهدى والغرب على الضلال؟ إنهم واقفون حيارى مذهولين إذ ليس بيدهم سبيل يستطيعون به كشف ضلال الغرب. خذوا مثلاً غيرنا من المسلمين، فلا شك أنهم يهتفون بملء أفواههم: يحيا الإسلام، والويل للأديان الأخرى، ولكن علينا أن نرى: هل للإسلام تأثير في قلوبهم اليوم، أم أن هتافاتهم مجرد ثرثرة لسان؟ كل مَن يتدبر أحوالهم بإمعان لا بد أن يقول أَنْ لا تأثير للإسلام فيهم. إنهم يهتفون في الظاهر: يحيا الإسلام، يحيا الإسلام، لكنهم في الواقع يتّبعون الغرب إذ يظنون أن تعاليم الإسلام لن تنجيهم من الدمار، ولكن تقليدهم الغرب سينجيهم من الهلاك.

لو صرفنا النظر عن الجهود السياسية للمسلمين ودرسنا أحوالهم لنرى ماذا يريد المسلم أن يكون بعد تحرّره سياسيًا مِن الغرب، لرأينا جليًّا أن المسلم بعد تحرُّره السياسي يريد أن يكون "تشرشل" الإنجليزي، ولا يريد أن يكون "أبا بكر الصديق" العربي. إنه يريد التحرر من قبضة الغرب سياسيًا، لكنه لا يريد بعدها أن يكون عمر أو عثمان، بل يريد أن يكون مثل إيطالي ITALY الإنجليزي أو ترومان الأمريكي أو ستالين الروسي. فترتسم أمام عينيه الشخصيات الغربية القوية واحدةً بعد أخرى، فيقول بكل حسرة: ليتني أجد فرصة واحدة لحكم البلاد، فأحكمها على شاكلة حُكْم هؤلاء الغربيين العظام! إنه لا يرغب أبدا، بل لا تخطر بباله أبدًا، أن يصبح مثل جلال الدين السيوطي أو الإمام البخاري أو السيد عبد القادر

الجيلاني. ولذلك ينبئ الله تعالى هنا أنه لن توجد في الزمن الأخير أمة أو طائفة تعتبر إنسان الغرب في ضلال وتكشفه للعالم، بل سيقلّد الجميع ويرى أن نجاحه في تقليده. الواقع أن مطالبتهم بالاستقلال السياسي شيء مختلف عن العمل بالإسلام تمامًا، إذ لا يعنون به إلا أن يتمتعوا بالسلطة كما يتمتع بها الغرب. أما الذي يتسبب في كشف ضلال إنسان الغرب فهو النبيّ، فإن جماعته وحدها ستعلن عندها بكل ثقة – بسبب إيمانها به – أن انتصار الغرب محال، ولن يُكتَب النصر إلا لنا لأننا آمنّا بنبيّ. مما يعني أن الأمل –وهو السبيل الوحيد للانتصار– لن يكون إلا عند المؤمنين به فقط، أما الطوائف الأخرى التي لن تكون من هؤلاء المؤمنين، كما لن تكون من حلفاء إنسان الغرب، فلن يضمّها إنسان الغرب إلى حزبه، كما لن ينكشف عليها ضلاله وضعفه، فتكون في حيرة من أمرها، فلن تجد بارقة أمل. ومن أجل ذلك نجد كبار زعماء المسلمين يعتذرون أمام الغرب. ليس عندهم شجاعةٌ أن يخبروا الغرب صراحةً بشناعته وضلاله. خُذوا مثلا السيد "سيد أمير علي"، فقد حاول في كتبه الردَّ على مطاعن الغربيين على الإسلام، لكن أسلوبه اعتذاريٌّ في كل مكان. فيقول مثلاً إننا نسلّم بصحة اعتراضاتهم، لكنا نرجوهم ألا يكونوا شديدين إلى هذا الحد في موقفهم ضد الإسلام، ذلك أن الإسلام ظهر في عصر متخلف، ولذلك نجد عديدًا من القضايا الإسلامية لا تسدّ الحاجات المعاصرة. أما سيدنا المسيح الموعود عليه السلام فرفض هذا الأسلوب الاعتذاري كليةً، وكشف على الغربيين ضلالهم بكلمات واضحة صريحة، وأعلن أن ما يقوله الإسلام صحيح ١٠٠%، والمعترض على تعاليمه لا يدل إلا على حمقه هو. هذا هو السبب في أن خصومنا من المسلمين يسبوننا حتى اليوم. لقد انتقدْنا الآريين الهندوسَ والسيخ والجَيْنِيّين والبوذيين والزراشتيين واليهود والمسيحيين وغيرهم، وما من ديانة ولا طائفة إلا وأثبتنا ضلالها دفاعًا عن الإسلام، ووجّهنا إليها اعتراضات قوية يستحيل أن يجيبوا عليها، وكان على المسلمين الآخرين أن يشكرونا على هذا العمل العظيم، ولكنهم بدلاً من ذلك أخذوا يسبّوننا قائلين: إن الأحمديين يثيرون أعداء الإسلام ضدّه، فقبْلَ فترة قرأتُ ما كتبه السيد "مَظْهَر علي أظهر" في المجلة التي يحررها، فقال بكل شدّة أن أكبر سبب

وراء ما كاله الآريون الهندوسُ للإسلام ومحمد ﷺ من شتائم هو أن حضرة الميرزا (مؤسس الأحمدية) بدأ يطعن في ديانتهم، ولولا طعنه هذا لما عارضوا الإسلام. فكأنما يريد السيد مظهر أن يقول: كان من واجب مؤسس الأحمدية أن يتبع الأسلوب الاعتذاري في مواجهة أعداء الإسلام، فبدلاً من الرد على مطاعنهم ضد الإسلام كان عليه أن يقول لهم: أناشدكم بالله أن لا تقسوا علينا، فإن محمدا ﷺ كان سيدَ أُمّة جاهلة –والعياذ بالله– فما كان بوسعه إدراك قضايا هذا العصر، وما كان لتعاليم القرآن الكريم أن تسدّ حاجات هذا الزمن، إنما كانت تعاليمه خاصة بالعرب فقط، أما اليوم فإن العلوم الغربية هي التي يمكن أن تصل بالإنسان إلى الذروة. ولكن مؤسس الأحمدية عليه السلام لم يتبع هذا الأسلوب، وأعلن للعالم أن محمدا رسول الله ﷺ أفضل الأنبياء قاطبة، وأن تعاليم الإسلام أفضل التعاليم كلها، والذين يعترضون عليه ﷺ إنما هم جهال حمقى لا يفهمون حقيقة تعاليم القرآن. (البراهين الأحمدية، الخزائن الروحانية ج ١ ص ٥٥٧). هذا ما أغضب الآريين الهندوس –بزعم السيد مظهر– فانبروا لمحاربة الإسلام، ولولا هذا التصرف من مؤسس الأحمدية لما حاربوه.

باختصار، لم يبق الأمل في قلوب المسلمين كلهم اليوم، وإن جماعتنا هي الوحيدة التي قلبها عامر بالأمل والتي تكشف ضلال الغرب موقنة أن من المحال أن ينتصر في مواجهتها.

إذن، فمن معاني قوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أننا نقدم شهادةً زمن النبوة على أن كل الأمم والطوائف في الزمن الأخير سوف تصاب بالرعب من شوكة الغرب وسطوته، وتظنّ أن نجاة العالم في تقليده، وتكون هناك جماعة ربانية واحدة فقط تتمتع بقوة الإيمان والعمل الصالح، وسوف يُبطِل أبناؤها الفكرةَ السائدة في العالم عن الغرب فيعلنون أن انتصار الغرب محال وأن دماره يقينيّ. الأمم الأخرى ستنظر إلى الغرب من منظور مادي فقط، فترى في الإنسان الغربي إنسانا كاملا، أما هذه الجماعة الربانية فسوف تنظر إلى الغرب من منظور روحاني، وترى في الإنسان الغربي إنسانا مريضا. وهذا هو المشهد الذي نراه في العالم اليوم؛ فالغرب يَرى في تركيا إنسانًا مريضًا، بينما ترى الدول الآسيوية في الغرب إنسانا

صحيحًا قويا، أما أبناء الجماعة الإسلامية الأحمدية فيعارضون ما يراه العالم كله ويعلنون أن إنسان الغرب إنسان مريض ويوقنون أن من المحال أن يتغلب عليهم هذا الإنسان المريض أبدا.

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٤

شرح الكلمات:

الصَّالِحَات: صلَح الشيءُ صلاحًا وصُلوحًا وصلاحيةً: ضدُّ فَسَد؛ أو زالَ عنه الفساد. والصالحُ: القائمُ بما عليه مِن حقوق العباد وحقوق الله تعالى؛ وهو صالحٌ لكذا، أي له أهليّةُ القيام به. (الأقرب)

فقوله تعالى ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني إلا الذين قاموا بأعمال لا فساد فيها، أو أعمالٍ بحسب المقتضى، أو أعمالٍ تؤدي حقوق الله وحقوق العباد.

تَواصَوا: تَواصَى القومُ: وصَّى بعضُهم بعضًا. (الأقرب)

الحقّ: ضدُّ الباطل؛ الأمرُ المَقْضِيّ؛ العدلُ؛ المالُ؛ المُلْكُ؛ الموجودُ الثابت؛ اليقينُ بعد الشك؛ الموتُ؛ الحزمُ؛ والحقُّ مِن أسماء الله عز وجلّ. (الأقرب)

الصبر: تركُ الشكوى مِن أَلَمِ البَلْوى لغيرِ الله لا إلى الله، فإذا دعا اللهَ العبدُ في كشف الضر عنه لا يُقدَح في صبره. وقال (أي أبو البقاء) في "الكليات": "الصبرُ في المصيبة، وأما في المحاربة فشجاعةٌ، وفي إمساك النفس عن الفضول.. أي عن طلب ما يفضُل عن قوام المعيشة.. فقناعةٌ وعفّة، وفي إمساكِ كلام الضمير كتمانٌ" (الأقرب).

إن قوله "وفي إمساك النفس عن الفضول.. أي عن طلبِ ما يفضُل عن قوام المعيشة.. فقناعة وعفة" يعني: أن الإنسان إذا أمسك نفسه عن فضول الأمور فيصبح الصبر نوعيْن: فإذا تجنّبَ إسرافَ ماله فهذا الصبر يسمى قناعةً، وإذا تحلّى بالأخلاق ونهى النفس عن الرذائل، فيسمى هذا الصبر عفةً.

إذن، فمن معاني الصبر: الشجاعة والقناعة والعفة وكتمان السرّ.

التفسير: لقد بيّن الله تعالى في قوله ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قاعدةً هامة بشأن أعمال الإنسان التي يؤدي إهمالها إلى العثار في أحيان كثيرة. إن من عادة الناس أنهم يعتبرون -مِن عند أنفسهم- بعض الأعمال حسنة وبعضها سيئة، ثم يحاولون القيامَ بما هو حسن عندهم واجتنابَ ما هو سيئ عندهم، ثم يسمّون هذه الأعمال الحسنة عندهم أعمالاً صالحة، وغيرها أعمالا سيئة، مع أن العمل الصالح ليس عملاً خاصًا ومحددا، بل كل عمل كان بحسب مقتضى الحال وسدّ حاجة الإنسان الروحانية أو المادية فهو صالح. إن من أكبر مزايا القرآن الكريم أنه قد أوجد للأعمال التي تتفق مع الدين اصطلاحا "العمل الصالح" هو كامل بحد ذاته ويوضح جليًّا ما هو حسن وما هو سيئ، أما الأديان الأخرى فاكتفت بقولها للإنسان عليك أن تعمل الأعمال الحسنة من غير أن تبين له ما هي هذه الأعمال الحسنة وما تعريفها، فإذا سألت أحدا من أتباعها: ما هي الأعمال الحسنة؟ قال من فوره: العمل الحسن أن نعبد الله تعالى ونصوم ونعين الفقراء ونتصدق وما إلى ذلك، مع أن هذا ليس جوابا مكتملا في الحقيقة. إن الإسلام لا يعتبر الصلاة ولا الصيام ولا الزكاة ولا الصدقة في حد ذاتها عملاً صالحا، وإنما العمل الصالح عند الإسلام ما يناسب مقتضى الحال، ويكون موافقا لحاجة الإنسان الروحانية والمادية. فالصيام مثلا حسنة كبيرة، ولكنه يصبح حسنةً حينًا وسيئةً حينا، فمثلا قال الرسول ﷺ إن الصائم يوم العيد شيطان.* فلو كان الصوم عملا صالحا في كل حال، فلماذا سمى النبي ﷺ الصائمَ يوم العيد شيطانا؟ مما يدل على أن الصوم في حد ذاته ليس حسنة، إنما يكون حسنةً حين يكون بحسب أمر الله تعالى. وكذلك الصلاة حسنة عظيمة، ومع ذلك قال الرسول ﷺ إن الذي يصلي والشمسُ تطلع

* أقرب ما وجدناه في الحديث بهذا المعنى: "يومان نهى رسول الله ﷺ عن صيامهما: يوم فطركم من صيامكم، واليوم الآخر تأكلون فيه من نسككم." (متفق عليه)

أو تغرب أو تكون في نصف النهار فهو شيطان.◈ فلو كانت الصلاة في حد ذاتها عملاً صالحا، فلماذا اعتبر النبي ﷺ مَن يصلي في هذه الأوقات آثمًا؟

غير أنها أحكام لا يعرف الجميع الحِكم الكامنة وراءها، ولكن المثال التالي يفهمه كل إنسان، أعني لو شنّ العدو هجومًا شرسًا وكان النبي والمؤمنون مشغولين بالدفاع عن أنفسهم، فيتركهم أحد في معركة القتال ويفرش السجادة جانبًا ويبدأ الصلاة، فلن يقول أحد إنه رجل صالح يعبد الله تعالى على انفراد باكيا مبتهلا، بل كل من يراه سيسميه شيطانًا، ويعتبره منافقا غدارا؛ حيث ترك الجهاد وأخذ يعبد الله تعالى منفردا غير مكترث للهجوم الشديد من قِبل العدو ولا بمصيبة المسلمين الكبرى. إنه ليس مصليًا، بل هو عدوّ الإسلام وعاصٍ لله تعالى.

كذلك الصوم عمل حسن، ولكن في إحدى الغزوات صام فريق من الصحابة ولم يصم آخرون، وعندما وصلوا إلى أرض القتال سقط الصائمون منهَكين مرهَقين، بينما بدأ غير الصائمين يُعِدّون عُدّتهم للقتال بكل نشاط وحيوية، فقال الرسول ﷺ برؤيتهم: "ذهب المُفْطِرون اليومَ بالأجر" (النسائي، كتاب الصوم). فلو كان الصيام عملاً صالحا في كل حال، لما قال النبي ﷺ ذلك. إن تفضيله المفطِرين على الصائمين يبين بكل وضوح أن الصوم يكون عملاً صالحا في حالات وعملاً غير صالح في حالات أخرى. إن الجهاد والقتال يتطلب قوة وشجاعة وهمّة، ولذلك فضّل النبي ﷺ المفطرين على الصائمين.

باختصار، إنما العمل الصالح هو ما تُراعَى فيه حقوق الله وحقوق العباد بأحسن وجه، أما من دون ذلك فلا يسمى أي عمل صالحا، وإن كان حسنا في الظاهر. الواقع أن النظرية الإسلامية تقول إن العمل وحده ليس بشيء، إنما حُسن العمل أو سوءه أمرٌ نسبي دائما، فتكون بعض الأعمال حسنة في ظرف وسيئةً في ظرف آخر.

◈ أقرب ما وجدناه في الحديث بهذا المعنى: "لا تصلوا عند طلوع الشمس فإنها تطلع بين قرني شيطان ويسجد لها كل كافر، ولا عند غروبها فإنها تغرب بين قرني شيطان ويسجد لها كل كافر، ولا نصف النهار، فإنه عند سجر جهنم." (مسند أحمد: مسند الأنصار ﷺ)

فالعمل الصالح في هذه الآية لا يعني ما هو حسن فقط، بل يعني ما هو حسن حسب الظرف والمقتضى. إن الإسلام لا يأمرنا أن نقوم بكل عمل نراه حسنًا، بل يأمرنا بما هو أنسبُ بحسب الظرف؛ لأن العمل مَهما بدا حسنًا في ظرف، فإنه يصبح سيئا في ظرف آخر. فمثلاً لو سألت أحدًا عن الرحمة لأجابك: الرحمة أفضلُ من كل شيء، إنها حسنة كبيرة. مع أن الحق أن الرحمة تصبح جريمة خطيرة في بعض الظروف. فمثلاً هناك شخص يرى سارقًا يسرق من بيت، فيترحّمَ عليه قائلا: لو أخبرتُ الشرطة لاعتقلتْه ورفعتْ ضده قضية وألقته في غياهب السجن لسنوات، فيعاني أهله وأولاده، فهذا القائل لن يثني عليه أحد، بل كل من يسمعه يقول إنه قد عمل عملا سيئا جدًّا، إذ كان عليه أن يلقي القبض على السارق. إن ترحُّمه عليه وعدم قبضه عليه ليس حسنةً، بل هو إثم كبير. فرأيتَ أن الرحمة تكون حسنة في ظرف وسيئة في آخر، ويستنكرها الجميع.

كذلك لو خرج شخص بنية قتل إنسان، وعلمتَ بذلك، ثم لم تخبر الشرطة ظنا منك أنك لو أخبرتها لألقت عليه القبض فعانى أهله وأولاده معاناة كبيرة، فعملُك هذا لن يُعَدَّ من الرحمة في شيء.

فهناك حالات كثيرة يصبح فيها أفضل الأعمال سيئًا ولا بد للإنسان من تجنُّبه، ولذلك قد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم دائما اصطلاح العمل الصالح، وأمَر المؤمنين ألا يعملوا أعمالاً تبدو حسنةً بغض النظر عن الظرف، بل عليهم أن يعملوا أعمالاً هي حسنة بالنظر إلى الظرف. فقوله تعالى ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني أن الجميع في خسران إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا أعمالاً هي حسنة بالنسبة إلى الظرف والواقع.

يتفاخر الأوروبيون بأن النظرية النسبية من اختراع آينشتاين، مع أن القرآن الكريم قدّم هذه النظرية أول مرة قبل ثلاثة عشر قرنا، حيث استعمل دائما اصطلاح العمل الصالح، وليس ذلك إلا النظرية النسبية في الحقيقة، بمعنى أن العمل لا يُعتبر حسنًا في حد ذاته، بل بالنسبة إلى ظرفه وواقعه. لقد ضربتُ آنفًا أمثلة على أعمال تبدو حسنةً عادةً، ولكنها تصبح سيئة بالنسبة إلى الظروف الأخرى. والآن أضرب مثالاً للعمل السيئ الذي يصبح حسنًا بالنسبة إلى الظرف والواقع. هناك ابنٌ يرى حيّةً تصعد على جسد أبيه من دون أن يدري، فيدرك أنه لو تأخّرَ قليلاً فستلدغ أباه حتمًا، فيضربها فورا بالحذاء أو العصا مثلاً

ويقتلها أو يخوّفها فتهرب. والآن فيما يتعلق بضربه أباه بالنعل أو العصى فهو عمل سيئ في الظاهر، ولكن كل من يسمع بالحادث فلن يلوم الابن باعتباره خبيثًا عديم الحياء يضرب أباه، بل سوف يشيد الجميع بذكائه وصلاحه؛ إذ تصرّف تصرفًا ذكيا وحمى أباه من الحية. فكما أن العمل الحسن يصبح سيئًا في بعض الأحيان نظرًا إلى ظرف خاص، كذلك أحيانًا يصبح العمل السيئ حسنًا بالنسبة إلى الواقع والظرف. فثبت أن النظرية النسبية لم يبتكرها آينشتاين، بل القرآن الكريم هو الذي قدّمها للعالم أول مرة، حيث أكد مرارًا أن العمل الحسن ليس إلا ما يكون مناسبًا للظرف والواقع.

فالحق أن قوله تعالى ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يقدّم النظرية النسبية. يقول الناس اعملوا العمل الحسن، ثم يسمّون بعض الأعمال حسنة وبعضها سيئة، متناسين أن أي عمل في حد ذاته لا يكون حسنًا أو سيئًا، بل يكون كذلك نسبةً إلى ظرفه وواقعه. فالقتل مثلاً عمل سيئ جدا، لكنه يصبح حسنًا جدا وقت القتال. هذا هو المراد من قوله تعالى ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.. أي على المؤمنين أن يعملوا ما هو الأحسن والأفضل بالنسبة إلى الظرف والواقع.

علمًا أن القرآن الكريم لا يخيّر الإنسان أن يقرّر بنفسه ما هو الأفضل والأحسن بالنسبة إلى الواقع، بل إنه بنفسه قد بيّن كلَّ المبادئ والتفاصيل الضرورية بهذا الصدد، أو بيّنها الرسول ﷺ.

لقد سبق أن ذكرتُ أن للخسر ثلاثة معانٍ: الضلال، ضِدُّ الربحِ، والهلاك. وقد ألقى الله الضوء على هذه المعاني الثلاثة بذكر ثلاث جمل إزاءها وهي: ١-إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ٢ -وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ٣- وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ، بمعنى أن المتحلّين بهذه الخصال الثلاث هم الذين يُحفظون من الخسران: أي من الضلال، والخسارة، والهلاك، فكل خصلة تحميهم من أحد أنواع الخسر، مما يدل دلالة قطعية على أن القرآن الكريم يراعي المعاني اللغوية للكلمات كل المراعاة. فالمعنى الأول للخسر هو الضلال، وقد ذكر الله تعالى إزاءها قوله ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ليبين أنه لن ينجو في الزمن الأخير من الضلال إلا الجماعة المؤمنة، لأنها تؤمن بالمأمور الرباني، أما الآخرون فيكونون في الضلال بعيدين عن الحق. فقوله ﴿آمنوا﴾ نفى عنهم الضلال.

والمعنى الثاني للخسر هو عدم الربح، وذكَر الله تعالى إزاءه قوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ليبين أنه لن يكون أحد محفوظًا من الخسران في الزمن الأخير إلا جماعة المؤمنين هؤلاء. لماذا يصاب الإنسان بالخسارة؟ لأنه لا يعمل عملاً مناسبًا للظرف، فالتاجر مثلا إذا لم يشترِ البضاعة في الوقت المناسب، و لم يبعها في الوقت المناسب، فلا بد أن يخسر، لكنه لو قام بالعمل الصالح، أي ما يكون مناسبًا لتجارته، ربِح فيها وتجنّبَ الخسارة. فثبت أن العمل الصالح يحمي الإنسان من الخسارة. وحيث إن المؤمنين يقومون بالأعمال الصالحة فيتجنبون الخسارة أيضا.

والمعنى الثالث للخسر هو الهلاك، وقد قال الله تعالى إزاءه ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.. أي أن المؤمنين لا ينجون من الضلال والخسران فقط، بل ينجون من الهلاك أيضا، لأنهم يتَوَاصَون بِالْحَقِّ ويتَوَاصَون بِالصَّبْرِ. ذلك أن من الواضح أن الله تعالى إذا أنزل شيئًا من الحقائق الجديدة عارضَه الناس، وسعى معظمهم للقضاء عليه، وعندما تتعرض أقلية لمعارضة الأكثرية أعني إذا حاول الجميع.. مِن حكام ورعايا وتجّار وصنّاع وعلماء وجهّال وصغار وكبار.. القضاءَ عليها، فليس أمامها إلا سبيلان للنجاة، الأول: أن تتوافر لها أسباب كاملة للنجاة، والثانية أن تستعمل هذه الأسباب المهيأة. ذلك أن الإنسان إذا لم يوجد عنده أسباب النجاة هلك، وإذا لم يستعمل الأسباب المتاحة هلك أيضا. فمثلا إذا لم يوجد عنده ماء مات عطشًا، وإذا كان عنده ماء و لم يشربه مات أيضا. والوسيلة الأولى تكون مهيأة للمؤمنين، إذ يؤمنون بالمبعوث الرباني ويتمتعون بقوة العمل على أحسن وجه، ويعملون دائما أعمالاً تتفق مع مقتضى الحال والظرف، ثم إنهم يتمتعون بميزة إضافية بأنهم ينظرون إلى وعود الله تعالى بنجاحهم، فيوقنون أن الدنيا لن تقدر على القضاء عليهم مهما عارضتهم. إذن، ففيما يتعلق بوسائل النجاة من الهلاك، فهي ميسرة للمؤمنين على أحسن وجه، فعندهم الإيمان والقوة الدافعة للعمل، واليقين الكامل بوعود الله تعالى بنجاحهم. ولكن لا بد للنجاح من استعمال هذه الوسائل أيضا، وإلى هذا يشير الله بقوله ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا

بِالصَّبْرِ﴾.. أي أن العمل الصالح وحده لا يكفي الإنسان، بل لا بد للأمة من التواصي بالحق والتواصي بالصبر، لكي تنجو من الهلاك.

ما هو المراد من قوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾؟

اعلمْ أن من معاني الحق الصدق، وعليه فقوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني أن المؤمنين لا يتمسكون بالصدق فحسب، بل يجعلون الآخرين أيضا يتمسكون به. بمعنى أن كل واحد منهم لا يكون مستعدا لقبول الحق والصدق بنفسه، بل يوصي الآخرين أن يظلوا مستعدين لقبول الحق دائما. إن أكبر سبب لهلاك الأمم التمسكُ بالنظريات الخاطئة؛ إذا تمسكت أمة بالنظريات الخاطئة فلا بد أن تتوصل إلى نتائج خاطئة تؤدي إلى أعمال خاطئة. فقوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يشير إلى أن هؤلاء القوم لا يقبلون بالنظريات الخاطئة، لكن إذا عُرض عليهم الحق والصدق قبلوه على الفور. علمًا أن من فطرة الإنسان أنه إذا اعتاد أمرًا فلا يحيد عنه ولا يتركه، إنما الإحساس بضرورة البحث عن الحقّ هو ما يخلصه من قيود العادات. أما القوم إذا اعتادوا أمرًا خاطئا فترة طويلة، وفقدوا الإحساس بضرورة البحث عن الحق، فيصعب عليهم التخلُّص من الخطأ الذي اعتادوه، وإنما يسارعون إلى الطعن في الحق، ولا يصلحون خطئهم.

عندما اكتشف "كولومبس" القارة الأمريكية حسده البعض فأخذوا يقولون: ما الغرابة في ذلك؟ فكل من يُبحِر بسفينته سيصل إلى هذه القارة يوما ما؛ فليس في هذا ما يوجب الإشادة والثناء على كولومبس. فلما بلغه ذلك دعاهم إلى مأدبة طعام، ثم أخرج من جيبه بيضةً، وقال لهم أن يثبّتوها رأسيًا على الطاولة، فأخذ الجميع ينظرون يمنة ويسرة، ولم يدروا ماذا يفعلون. فأخرج كولومبس من جيبه إبرةً وثقب بها البيضة وأخرج شيئا من مائها، ووضعه على الطاولة ثم ثبَّت به البيضة. فقالوا: ما الغرابة في ذلك؟ كنا نستطيع أن نعمل ذلك. فقال كولومبس: سمعتُ أنكم تقولون ما الغرابة في اكتشاف كولومبس لأمريكا، فكنا نستطيع أن نكتشفها. إن فرصة اكتشاف أمريكا كانت قد فاتتكم، ولكن كانت لديكم فرصة تثبيت البيضة على الطاولة، فلم تنتهزوها أيضا.

فالواقع أن مبادئ الحقّ والصدق بسيطة جدًّا، كل ما في الأمر أن يتمسك المرء بالصدق ويعمل به. إن الذين في قلوبهم إحساس بضرورة البحث عن الصدق، يتوصلون إلى نتائج هامة من أمور بسيطة أيضًا. إنهم لا يفكِّرون من أين يجدون الحقّ، أو ما هو مصدره، وإنما يُقبِلون عليه إقبال العطشان على الماء، نابذين أفكارهم الخاطئة القديمة ضاربين بها عرض الحائط. أما الذين لا يوجد عندهم إحساس بضرورة قبول الصدق فيتعذَّر عليهم جدًّا التخلي عن أخطائهم السابقة. خذوا مثلاً مسألة حياة المسيح عليه السلام وبقائه في السماء حيًّا ومدى ضعفها وركاكتها. فما دام الناس كلهم يموتون منذ آدم عليه السلام وحتى يومنا هذا، فكيف يمكن أن ينجو المسيح عليه السلام من الموت ويصعد إلى السماء حيًّا خلافًا لسنة الله المستمرة في البشر؟ ولكن المسلمين تمسكوا بهذه العقيدة الخاطئة مرةً فأصبح من الصعب عليهم أن يتخلوا عنها. وهناك مسائل عديدة خاطئة أخرى تسربت إلى المسلمين نتيجة بُعدهم عن زمن البعثة النبوية، وقد أصبح تركها الآن صعبًا عليهم. ولكن إذا تشجّعَ المرء وآمن بالمسيح الموعود عليه السلام تحطّمت أطواق هذه العقائد الخاطئة وسلاسلها في لمح البصر من دون أن يعاني شيئا. يقول المسلمون الآخرون في أنفسهم قد أفتى بذلك الإمام الغزالي أو الجنيد البغدادي أو عبد القادر الجيلاني أو الإمام الرازي أو الإمام أبي حنفية أو الإمام الشافعي، فكيف نتخلى عن أقوالهم ونتركها؟ ولكن ليس صعبًا على المسلم الأحمدي التخلي عن هذه الأفكار الخاطئة، لإدراكه أنه قد آمن بالمأمور الرباني، وأن محمدا رسول الله ﷺ -الذي أنزل الله عليه كلامه القرآنَ الكريم- قد أخبر أن ما يقوله هذا المأمور الرباني يكون هو الصحيح، وأن ما يرفضه فهو الخطأ، فلا يفكر المسلم الأحمدي أن الإمام الرازي أو الغزالي أو أبو حنيفة قد قال هذا وذاك، وإنما ينظر إلى ما أمر به رسول الله ﷺ وما قاله المسيح الموعود عليه السلام.

باختصار، كل أمة تقع في شتى الأخطاء، ولكن عندما يُبعث نبي من عند الله تعالى يتخلصون من أخطائهم السابقة. وأيّ شك في أن كبار القوم أيضا يمكن أن يقعوا في الخطأ، فلو كانوا صائبين في ألف قضية فقد يخطئون في قضية أو قضيتين،

وتتراكم أخطاء من الكبار على مر العصور وتصبح كومة كبيرة، فلا يعرف الناس كيف يخرجون من وحلها، لأنهم لو فعلوا ذلك لعُدّوا ممن يعارض كبار الأسلاف. فالإنسان يظلّ مقيَّدًا في أنواع الأخطاء قبل الإيمان بالنبي، ولكن بمجرد أن يؤمن به تتمزق حبال الأخطاء التي قيّدته واحدًا بعد الآخر، وإلى ذلك أشار النبي ﷺ بقوله أن "الإسلام يهدم ما كان قبله" (مسلم، كتاب الإيمان).. ومن معاني هذا الحديث أن إيمان المرء بنبيّ الله يحرّره من أصفاد التقاليد السابقة، ويقطع عنه كل حبلٍ أُسر فيه، فيتنفس في حرية، لأن المؤمنين بالنبيّ يقولون سنؤمن بكل ما هو حق وصدق، ونرفض كل ما ليس بحق أيًّا كان قائله، وهكذا يتحررون من كل الأغلال التي طوّقتهم وتتمزق كل السلاسل التي قيَّدَتْهم، فيصبحون حملة لواء الحق والصدق.

باختصار، قوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني أن المؤمنين يتمسكون بالحق والصدق ويسعون لأن يُثبتوا عليه الآخرين أيضا.

ومن معاني الحق اللهُ ﷻ، وعليه فقوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني أن المؤمنين ينشئون صلة مخلصة مع الله تعالى، كما يوصون الآخرين بإنشاء صلة إخلاص وصدق مع الله تعالى.

الواقع أن وجود الله تعالى يغيب عن أنظار الأمم تدريجيًا نتيجة طقوسهم القديمة، ويصبح عندهم إله آخر زائف يعبدونه. هذا هو حال جميع الأديان الموجودة اليوم من مسيحية وهندوسية وغيرهما. فلو تبيّنتَ أمرهم لوجدت أن صورة الله الحقيقية قد انمحت عندهم، وقد خلقتْ رواياتهم الشفوية إلهًا جديدًا يعبدونه. هذه الصورة الجديدة لله تعالى ليست مما قدّمه دينهم في البداية، بل إنما رسمتْه أوهامهم وتصوراتهم. وعندما يبعث الله تعالى نبيًا تسقط هذه الأصنام كلها واحدًا تلو الآخر، ويتراءى للناس وجهُ الله الحقيقي، ويخرج الناس من حضيض الوثنية ويسعون قُدمًا في مجال قرب الله ومحبته ﷻ. فمن معاني قوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أن المؤمنين يكونون على صلة مخلصة مع الله تعالى، كما يحثّون الآخرين على أن يعبدوا الإله الحقّ ويُنشئوا معه صلة إخلاص متينة ولا يضيّعوا وقتهم في عبادة الأصنام.

ومن معاني الحقّ العدلُ، وعليه فقوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني أن المؤمنين يعدِلون كما ينصحون الآخرين بالعدل. الواقع أن من أكبر المساوئ التي هي نتاجُ التقاليد القومية أن الناس يحيدون عن العدل والإنصاف. هناك آلاف الآلاف من الأُسر التي تتمسك بتقاليدها البالية، وإذا أخطأَ بعض أفرادها قالوا نحن نعلم أنه مخطئ، ومع ذلك لا يمكننا التخلي عنه، بل نحن مضطرّون إلى الانحياز إليه، ولن ندَعه يذلّ ويَخْزى أمام الآخرين. فثبت أن العلاقات القديمة تمنع الناس من العدل، ولكن عندما يُبعث نبيّ تحدث في العالم ثورة، وتُنفخ فيهم ثانيةً روحُ الإنصاف الذي كانوا يدوسونه من قبل تحت النعال. فيعاهد المؤمنون على يده بإرساء العدل في العالم واسترداد حق المظلوم ومعاقبة الظالم، وأنهم لن يَدَعوا صاحبَ العمل ليظلم الأجير، ولا الثري ليسلب الفقير، وهكذا يتمسكون بالعدل حقًّا، ويدْعون الآخرين أيضا إلى العدل والإنصاف دائما.

ومن معاني الحق اليقينُ بعد الشك، وعليه فقوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني أن المؤمن لا يكون إيمانه مبنيًا على الشكوك والشبهات أو القياس والتخمين، بل يؤسس عقائده على اليقين، كما يوصي الآخرين أن لا يؤمنوا إيمانا تقليديا فقط، بل يتحلّوا بإيمان مبني على المشاهدة. الحق أن أكبر وسيلة لليقين هي وجود النبيّ، فعندما يُبعث نبي من الله تعالى يقدِّم للناس آياتٍ حيّةً بيّنةً على صدقه، فتزول شكوك الناس وشبهاتهم، فيتأسس إيمانهم على المشاهدة لا على القياس والتخمين. فالله تعالى يخبر هنا أن المؤمنين يكونون ثابتين على اليقين، كما يحثّون الآخرين على أن يتحلوا بيقين كامل بوجود الله تعالى، لأن الإيمان التقليدي لن ينفعهم شيئا. هذا هو حال المسلمين اليوم، فإيمانهم تقليدي فحسب، ولا يوجد عندهم ذلك الإيمان الراسخ على أسس اليقين، والذي لا يتزعزع ولا يتزلزل أبدا. لا شك أنهم يؤمنون بصدق الإسلام ورسالة النبي ﷺ، ولكنك لو سألتهم لماذا تؤمنون بالإسلام وبرسالة محمد ﷺ لعرفتَ أن أكثرهم يفعلون ذلك لأنهم ورثوا هذه العقيدة من آبائهم أو ولدوا في بيوت المسلمين، وليس بيدهم أي دليل آخر على صدق دينهم. لقد وجّهت هذا السؤال للعديد من المسلمين المثقفين، فتلقيت منهم جوابًا مخيبًا للآمال

دائما، مما يدل أن مسلمي اليوم لا يوقنون بصدق دينهم، وإنما ينتمون إليه انتماء تقليديا، وقلوبهم خالية من أي يقين وثقة بصدق الإسلام. لقد سألتُ مرة شخصًا كبيرا قد بلغ الذروة في المجالات العلمية في هذه الأيام: لماذا تؤمن برسول الله ﷺ؟ قال: حقًا، لا أعرف. فالحقيقة أن إيمان مسلمي اليوم قد أصبح إيمانًا تقليديا فحسب، فلم يعودوا يتدبرون في دينهم، ومن أجل ذلك عندما أعلن المسيح الموعود عليه السلام دعواه أخذوا يعترضون عليه، إذ كانوا يؤمنون بوجودٍ وَهْمِيٍّ للرسول ﷺ، أما حقيقتُه فهي خفية عن أعينهم. فقوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني أن المؤمنين بنبي قائمون على اليقين، كما أنهم يسعون ليُخرجوا غيرهم من الإيمان التقليدي ويصبحوا من أصحاب الإيمان الحقيقي. وبما أنهم لا يقلّدون تقليدًا أعمى، بل يصدّقون كل شيء بعد التدبر العميق، فيحاولون معرفة حِكمة كل حُكم من أحكام الدين؛ فيصلّون ويصومون ويحجّون ويتصدقون ويتبرعون مع إدراك الحكمة وراء هذه الأحكام وأهميتها، فيقومون بكل عمل ببشاشة وينتفعون منه. ذلك لأن أساس أعمالهم اليقين لا القياس والتخمين.

ومن معاني الحق الحزم، وعليه فقوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني أن المؤمنين يتّسمون بالحزم والحيطة، كما يدْعون الآخرين إلى الحزم. ويتحلى الناس بهذه الميزة نتيجة إيمانهم بالنبي، أما الأمم الأخرى فدأبها التهوّر الذي يُهْدِرون به قدراتهم وجهودهم كلية. إن المؤمنين بالنبي يضعون في حسبانهم هدفًا ساميًا جدا. إنهم حَمَلَةُ لواءِ الدين الواجب حمايته على كل فرد منهم. ولأنهم حَمَلَةُ أمانة عظيمة فيتخذون كل خطوة بحذر وحيطة مخافة أن يتعثروا فتنخفض الراية التي عليهم أن يرْكزوها في أرض العدو فاتحين منتصرين. أما الأمم الأخرى فيقول أبناؤها إما أن نَقتُل أو نُقتَل، فيهاجمون العدو متهورين بلا تروٍّ، ويهدرون قدراتهم ويضيعون قوتهم. فقوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني أيضا أن المؤمنين يتحلّون بالحزم والحيطة، كما ينصحون الآخرين بأن يسيروا بحذر.

ومن معاني الحق الموتُ، وعليه فقوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني أن المؤمنين يرضون بالموت ببشاشة، كما يوصون الآخرين ألا يخافوا من التضحية بأرواحهم في

سبيل الله. مما يعني أن جماعة المؤمنين تجسيد للتضحية والإيثار، ولا يخافون الموت مطلقا، لإدراكهم أن أنباء الله تعالى تؤكد نجاحهم، فإذا رجعوا من المعركة أحياء عُدّوا من الفاتحين، وإذا قُتلوا نعموا بحياة السكينة والطمأنينة في الآخرة. فهم يربحون في الحالتين: الحياة والموت. فإذا نجوا من الموت فنجاحهم مضمون، وإذا قُتلوا فازوا برضا الله تعالى في الآخرة. والشجاعة التي تتولد بهذا اليقين لا يوجد عُشْرُ مِعْشارِها في الأمم الأخرى. عندما عسكر الطرفان في ميدان بدر، بعث الكافرون أحدًا منهم ليعرف عدد المسلمين وعتادهم. ويبدو أنه كان ذكيا جدا، فلما رجع قال لقومه: أرى أن عدد المسلمين قرابة ٣٠٠ محارب – وبالفعل كان عددهم ٣١٣ – ولكنه أضاف وقال لأصحابه: ولكني أنصحكم ألا تحاربوهم، لأنني "رأيت البلايا (أي النُوق) تحمل المنايا" (السيرة لابن هشام). بمعنى أن وجوههم تنبئ بوضوح أن كل واحد منهم قد جاء بنية ألا يرجع إلى بيته حيًّا. والأمةُ التي تخرج إلى ساحة القتال بهذه النية فقتالها ليس بأمر هيّن. فالله تعالى قد أشار بقوله ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ إلى أن المسلمين شجعان وبواسل لا يخافون الموت، بل يعانقونه فرحين، كما ينصحون الآخرين ألا يخافوا الموت أبدا. فكأنما قوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ إشارة إلى قوة إيمانهم ويقينهم؛ فإنهم يوقنون بالحق يقينًا كاملا فيعتبرون الموت بشارةً بدلاً من أن يستاءوا منه، ثم إنهم لا يكونون مستعدين للموت فحسب، بل ينصحون أصحابهم أيضا أنكم إذا أردتم النجاح فاستعِدّوا للموت.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.. أي أن من ميزات المؤمنين أنهم يصبرون، كما يوصون إخوانهم بالصبر. والصبر هو قوةُ تحمُّلِ الظلم، وأيضا هو الثبات والاستقامة على الخير. فكأن الله تعالى يخبر هنا أن المؤمنين إذا آمنوا بالحقّ لم يبالوا بما يصبّ عليهم العدو من مصائب ويضيق عليهم الخناق، بل يتحملون الشدائد بهمّة وشجاعة، كما يظلون متمسكين ثابتين على الخيرات، وينصحون الآخرين بتحمل المصاعب والثبات على الحسنات.

لقد اتضح من هذه الآيات أن دين المؤمن دين جماعي، فنيّاته الحسنة لا تنحصر في ذاته، بل يوسّعها لجميع الإنسانية. إنه يدعو إلى المؤاخاة العالمية، ويريد أن ينخرط الجميع.. الصغير والكبير.. في سلك واحد. إنه لا يريد أن يكون صالحا فقط، بل يريد أن يكون أصحابه كلهم صالحين، حتى يُرسى في الدنيا الصلحُ والسلام على أسس قوية متينة لا يهزّها زلزال. هذه هي الأمور التي تنقذ الأمم من الهلاك، والأمة التي يتحلى أفرادها بهذه الخصال لا يقدر أحد على إهلاكها، سواء كانت عشرة أفراد أو مائة أو ألف أم عشرة آلاف، فإنهم غالبون في الدنيا حتمًا، وتستمر غلبتهم.

باختصار، إن قوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ يعني أننا نقدّم شهادةً زمنَ النبوة أو الدهر أو الزمن الأخير للنبي ﷺ على أن المؤمنين سينتصرون حتمًا لكونهم متحلين بهذه الخصال الثلاث، وأن أعداءهم سينهزمون حتمًا لافتقارهم إليها.